العمارة العربية الاسلامية

م. علي سعد عبد الوهاب

المحاضرة التاسعة

جامعة المثنى

كلية الهندسة

قسم هندسة العمارة

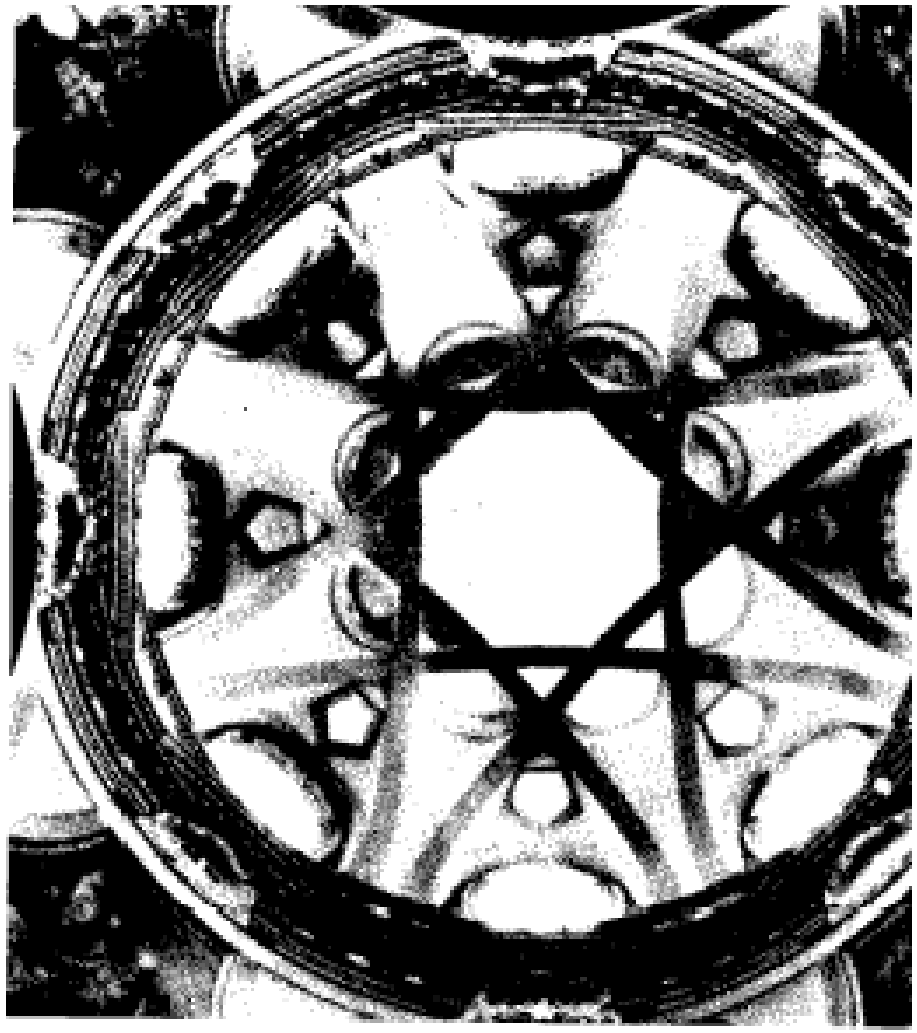

شريعة

ش : ١٩٦ ــ إيطاليا ، كنيسة سان لورنزو

ولا يمكن أن يقاس إذن هذا العدد الضئيل نسبياً بالأعداد الضخمة التي وصلتنا من العصور المختلفة في الشرقين الأوسط والأقصى الإسلاميين ، والتي تطورت فيها القباب وأشكالها وطرق بنائها وأساليب زخرفتها حتى وصلت إلى آفاق بعيدة من التطور والنضج ، وحتى أصبحت من أهم أعلام العمارة العربية الإسلامية فيها .

* * *

أما في مصر والشام ، فقد سارت حلقات تطور القباب في طريقها الطبيعي . غير أن هناك فجوة زمنية لا تتصل فيها حلقات ذلك التطور ببعضها ، وذلك من نهاية العصر الأموي حتى الفتح الفاطمي لمصر . ولكن يمكن وصل بعضها بواسطة أمثلة من قباب أضرحة في أسوان حيث أمكننا أن نؤرخ بعضاً مما كان يُظن أنه يؤرخ في العصر الفاطمي وأرجعناه إلى العصر العباسي ، وذلك على أساس تحليل

معماري فحسب[٢٧٧] . ومن الغريب أن بعض أمثلة القباب هذه بها من الخصائص ما يمت بصلة شبه كبيرة أحياناً وقليلة أحياناً أخرى بشبيهات لها في قبة جامع القيروان ، ومنها الأوجه المقعرة لجوانب قواعد قباب تلك الأضرحة ، باستثناء ندرة منها (ش : ٢٠٥ و٢٠٦) ، كما تختص رقاب قباب أضرحة أسوان ، بالإضافة إلى تقعر أوجهها ، بأن أطرافها العليا تتقابل في حافات وتبرز على هيئة تشبه القرون ، وهي ظاهرة لا توجد في أي من الطرز المعمارية السابقة واللاحقة بالطراز العربي الإسلامي ، بل إنها لا توجد في أي من مدارس هذا الطراز ولا في أي من عصوره .

ش : ١٩٧ ــ ايطاليا ، كنيسة سان سيلكروفي نفارو

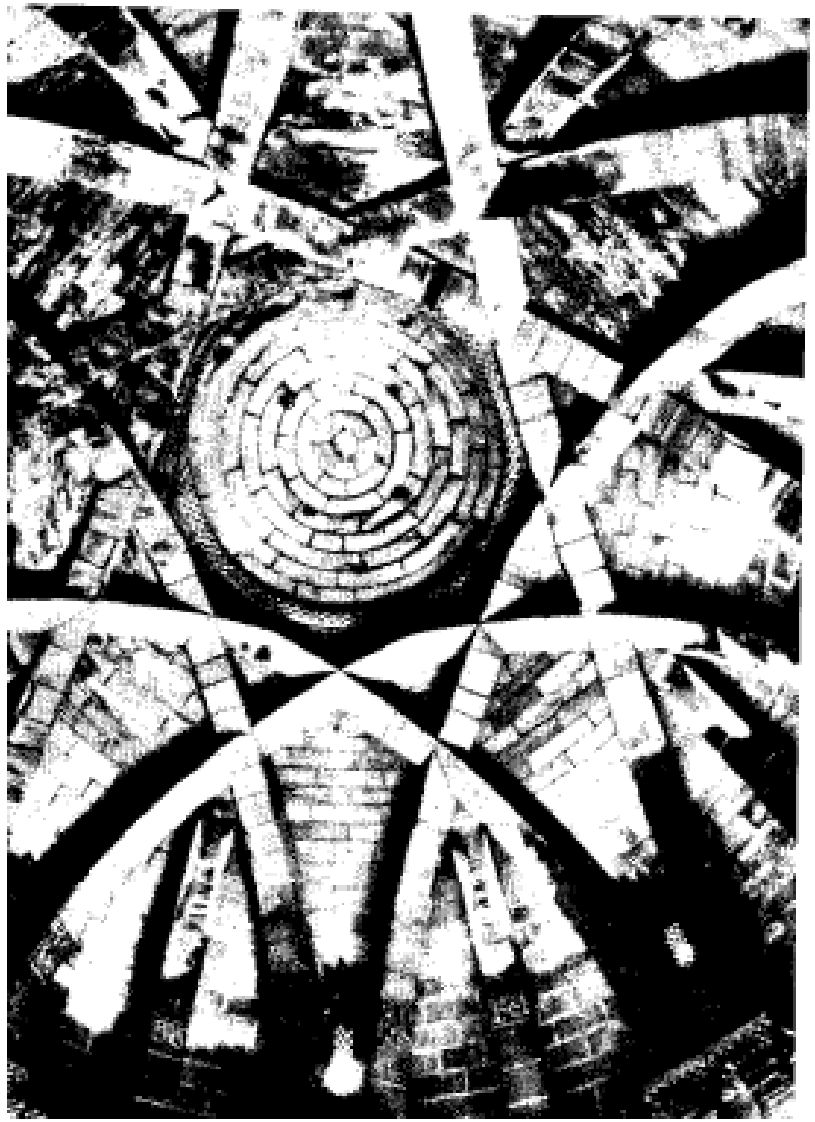

ش : ١٩٨ ــ بريطانيا ، كنيسة ويلز

كتيب وستمنستر

ومن تلك الأضرحة في أسوان ، مجموعة قليلة العدد تتميز بأن قبابها تحملها رقاب غريبة التصميم حيث لا يُتّبع التقليد المألوف ، وهو أن القبة تستقر فوق رقبة مثمنة قائمة بذاتها وتعلو قاعدة مربعة تحتوي على منطقة الانتقال في داخلها ووضعت في أركانها المقرنصات التي تحول الحافة المربعة العليا إلى مثمن يتلق الرقبة ، فبدلا من ذلك التصميم التقليدي

ش : ١٩٩ ــ بريطانيا ، الأقبية المتقاطعة بالضلوع

فلتشرو كتيب وستمنستر

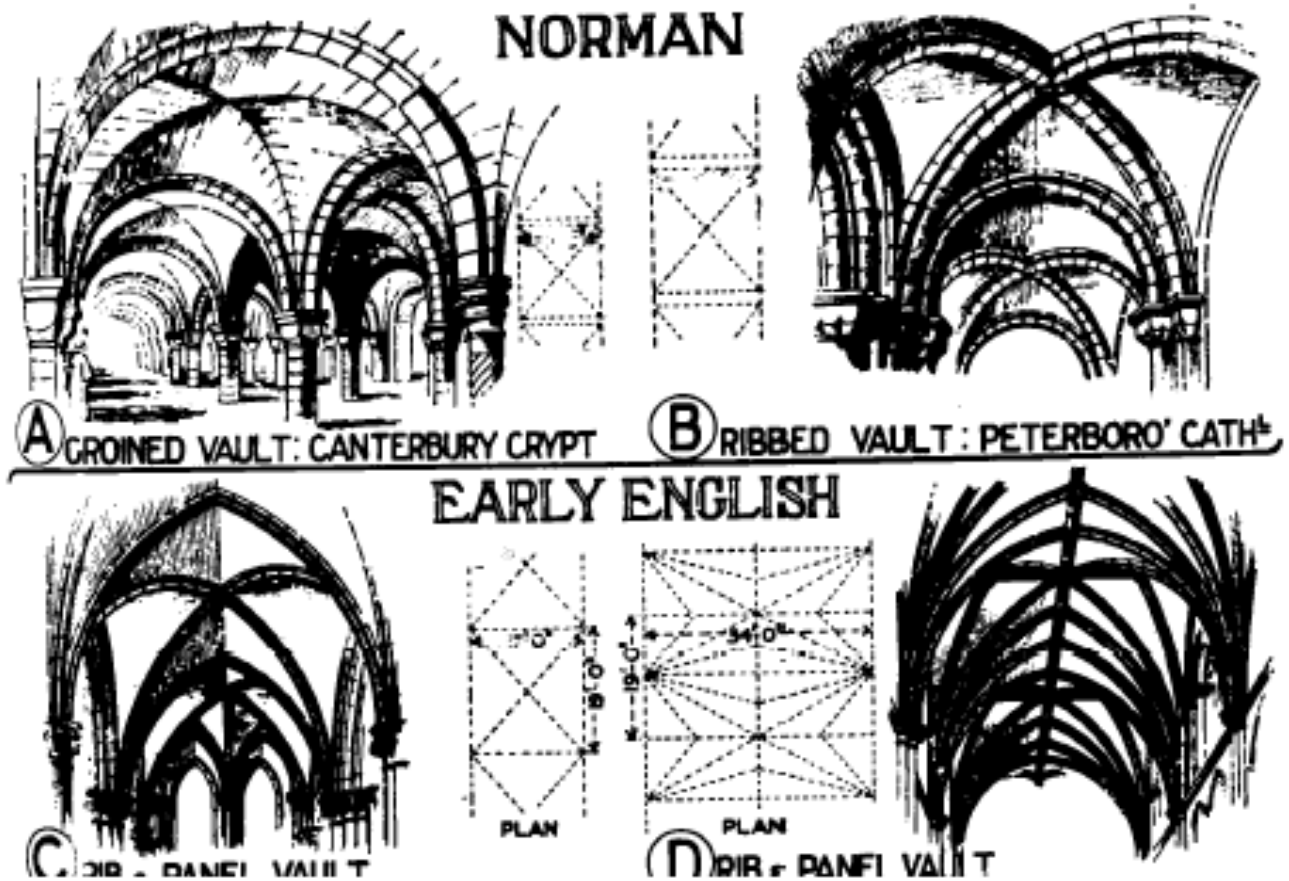

أصبحت الرقاب ومنطقة الانتقال كتلة واحدة ، ثم زاد الأمر غرابة بأن برزت المقرنصات خارج تلك الكتلة فجعلتها ذات منظر غير عادي (ش : ٢٠٦) .

بل الأغرب من ذلك كله ، أن هذه الظاهرة لا تشاهد بعد ذلك إلا في العصر الأتابكي في الشام والعراق ، ولكنها صيغت في قالب أكثر أناقة وتهذيباً كما سنرى بعد قليل .

ونترك هذا المثل من التصميم غير العادي مؤقتاً لكي نتابع حلقات سلسلة تطور القباب في المنطقة الوسطى من العالم العربي الإسلامي ، فنرى أشكالها في كل من الشام ومصر قد سارت في الطريق المألوف من التطور منذ العصر الفاطمي الذي كثر فيه بناء الأضرحة ، وكان الكثير من قبابها شديد الصلة بقبة جامع القيروان من حيث تكوينها من ضلوع محدبة من الخارج ومقعرة من الداخل ، غير أن عدداً ليس بالقليل منها كان أملساً بغير ضلوع .

وكانت المادة الأساسية لبناء القباب في مصر هي الآجر ، وذلك طوال العصر الفاطمي ثم الأيوبي الذي ندر فيه النوع ذو الضلوع . وكانت القباب كلها قطاعها نصف كروي مدبب إلا ما ندر ، وكان ذلك الجزء الكروي يرتفع عادة فوق بدن أسطواني . وكانت توضع القبة عادة بجزئيها الأسطواني والكروي المدبب فوق

ش : ٢٠٠ ــ بريطانيا ، كنيسة هنري السابع في وستمنستر

كتيب وستمنستر

ش : ٢٠١ ـ اصفهان ، قبة في المسجد الجامع

موسوعة الفن الفارسي

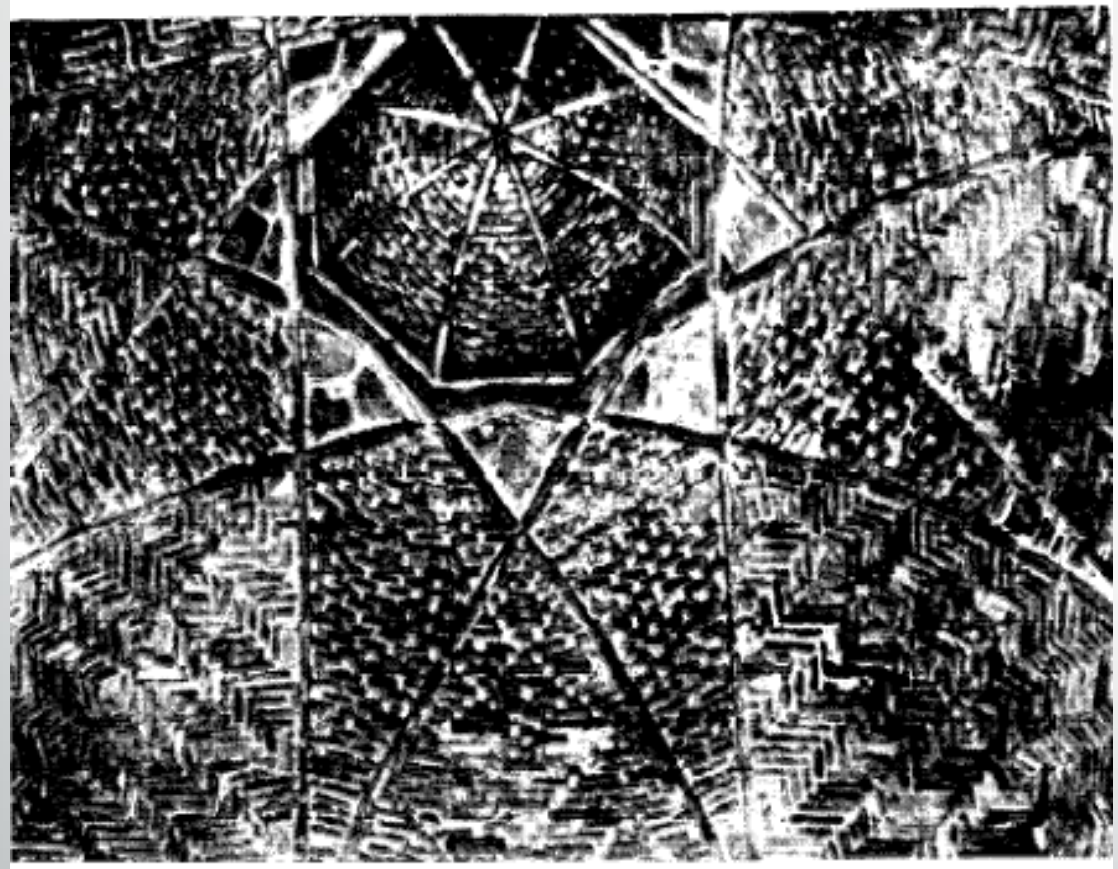

ش : ٢٠٢ ـ اصفهان ، قبة في المسجد الجامع

موسوعة الفن الفارسي

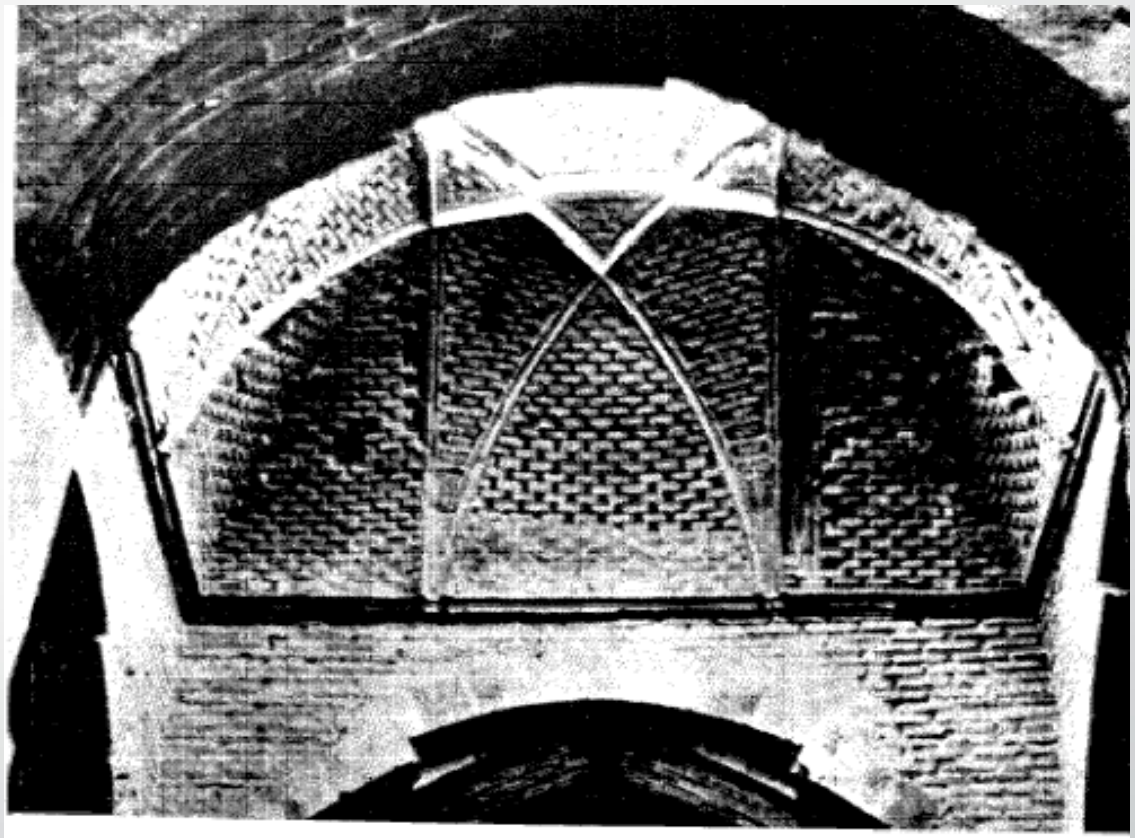

موسوعة الفن الفارسي

ش : ٢٠٣ ــ اصفهان ، قبة في المسجد الجامع

رقبة يزيد قطرها في أغلب الأحيان عن قطر بدن القبة . وكانت الرقبة مثمنة أو مستديرة وتحتوي على نوافذ للإنارة . أو توضع القبة مباشرة فوق قاعدة مربعة المسقط عند التقائها بسطح المبنى ثم تشطف أركانها على هيئة درجات حتى تصل إلى شكل مثمن ترتفع فوقه الرقبة أو القبة مباشرة (ش : ٩٦) ، ثم تطورت تلك الدرجات وبخاصة في العصر المملوكي إلى حليات معمارية (mouldings) منها المقعر ومنها المحدب (ش : ٢٠٧) إلى أن تصل إلى السطح العلوي للقاعدة الذي انتهى إلى الشكل المثمن لكي تستقر علي الرقبة المثمنة أو المستديرة .

أما القباب فقد تغلّب أسلوب بنائها بالحجر في العصر المملوكي ، وذلك إما على هيئة ملساء أو ذات ضلوع متلاصقة رفيعة ، أو ذات تكوينات زخرفية محفورة أو بارزة بروزاً خفيفاً تقوم على عناصر نباتية أو هندسية أو مزيج منها . وبقيت أمثلة لا حصر لها من أنواع تلك القباب[٧٨] ، نشاهد واحداً منها غاية في الرشاقة في قبة مدرسة قايتباي في الصحراء (ش : ١٣٤) ، وفي قبة جامع المؤيد (ش : ٢٠٧) .

وظهر في العصر المملوكي أيضاً نموذج من القباب يميل إلى الشكل البصلي الوثيق الصلة بالقباب في فارس سيأتي ذكره فيما بعد .

كما وصل تأثيرٌ فارسيٌ آخر إلى المنطقة الوسطى من العالم العربي الإسلامي وذلك عندما استخدمت البلاطات الخزفية الملونة التي كانت سائدة في منطقة فارس والعراق ، وذلك لتغشية مساحات من الجدران المستوية والمستديرة والقباب والمآذن ، ولكن في غير

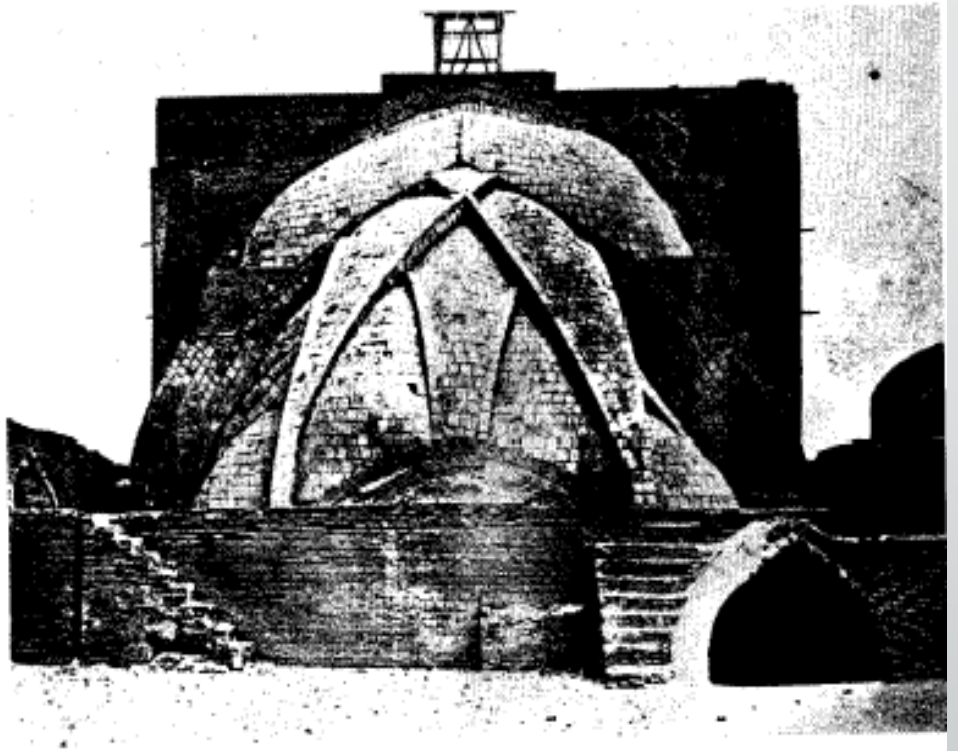

ش : ٢٠٤ ــ اصفهان ، قبة في المسجد الجامع

ش : ٢٠٥ ــ مصر ، ضريح في اسوان

مونيريه

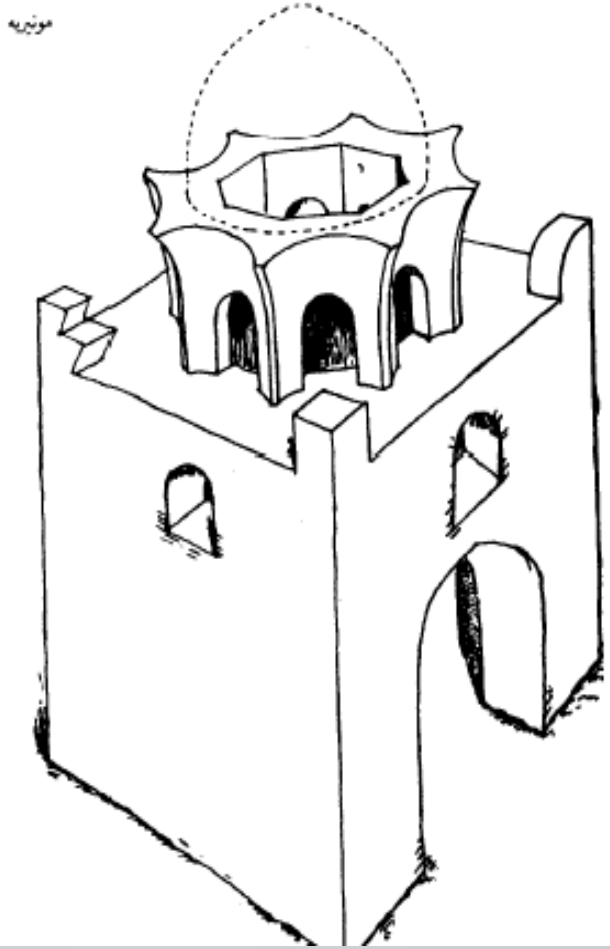

ش : ٢٠٦ ــ مصر ، ضريح في اسوان

مونيريه

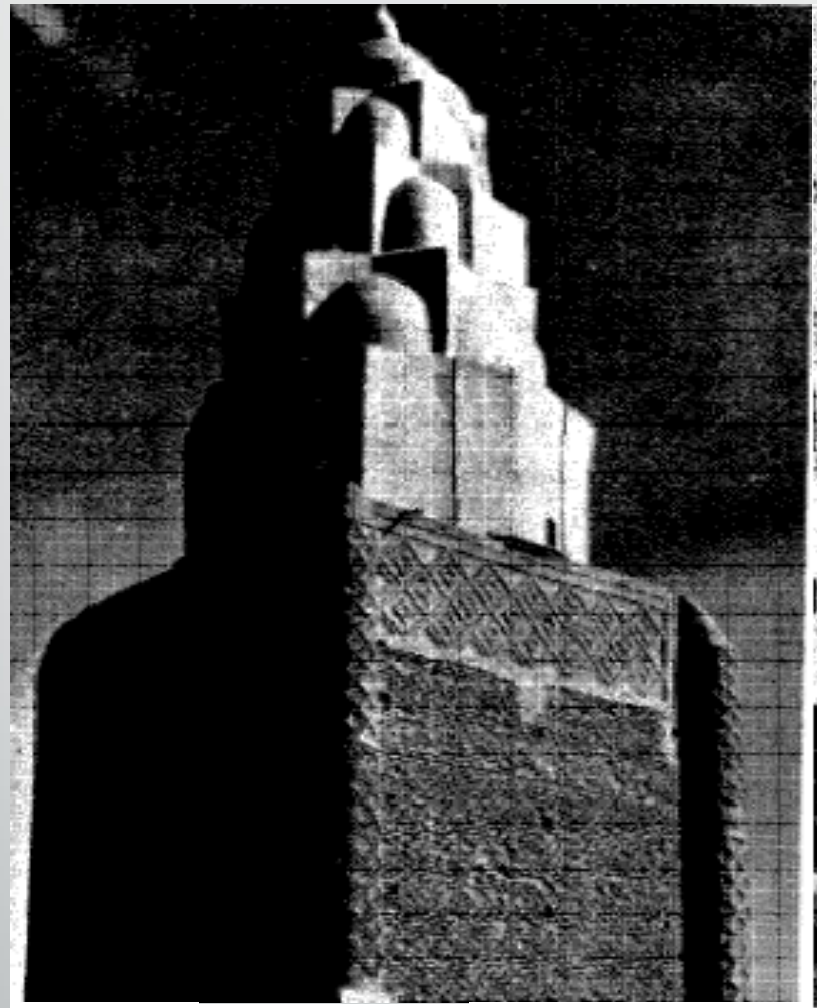

ش : ٢٠٩ ــ العراق ؛ ضريح الامام دور هرتزفلد

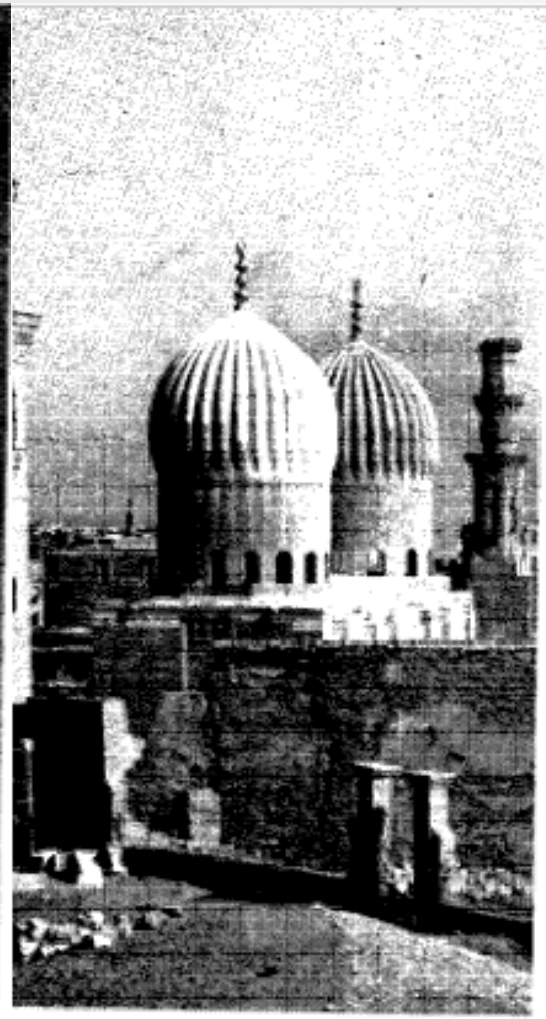

ش : ٢٠٨ ــ مصر ، القبة السلطانية شافعي

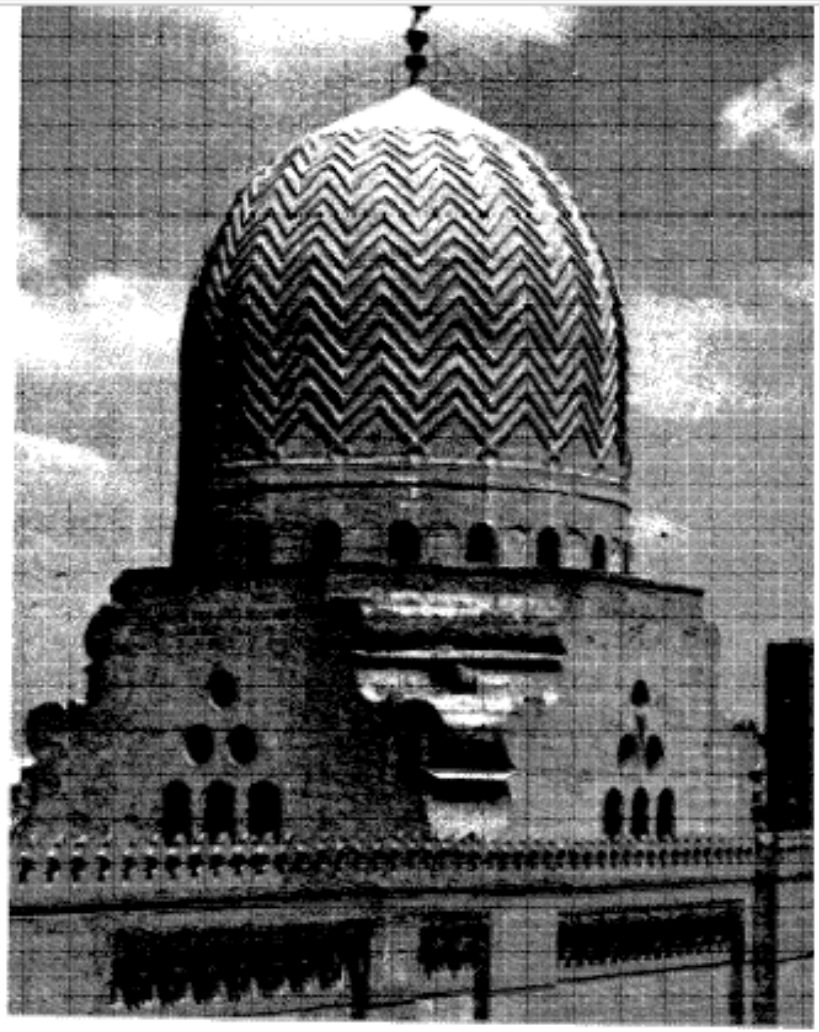

ش : ٢٠٧ ــ مصر ، قبة جامع المؤيد شافعي

إسراف أو مغالاة كما كان الحال في منطقة الشرق ، ومن أمثلة ذلك ما أشرنا إليه من أنه يشاهد في رقبة القبيبة البصلية لمئذنة جامع الناصر محمد بن قلاوون بالقلعة (ش : ١٧٢) ، كما تشاهد في عدد قليل من عمائر مملوكية أخرى .

* * *

غير أن العصر السلجوقي ثم الأتابكي قد خلفا لنا نحو أربعة أمثلة من القباب من نموذج غير مألوف ويمت بصلة الشبه بالتصميم الذي مر علينا منذ قليل في أحد أضرحة أسوان (ش : ٢٠٦) .

ويعود أقدم الأمثلة التي وصلتنا من هذا النوع المبتكر إلى حوالي سنة ٤٨٢ هـ أو ٤٨٧ هـ (١٠٩٠ أو ١٠٩٧ م) وهو ضريح الإمام دور بالعراق (ش : ٢٠٩ و ٢١٠)[٧٩] ، ومثل هذا الضريح يعد مرحلة ناضجة تم تهذيب تلك الفكرة فيها عما كانت عليه في ضريح أسوان . ويأتي بعد هذا المثل العراقي مثلان آخران من عصر نور الدين بن زنكي ، أحدهما غطي به ضريح نور الدين بن زنكي في مدرسته بدمشق وتؤرخ في سنة ٥٦٧ هـ (١١٧٢ م) (ش : ٢١١ و ٢١٢)[٨٠] ، والآخر يسبقه في التاريخ ويوجد في المارستان الذي بناه نور الدين

ش : ٢١٠ ــ العراق ، ضريح الامام دور

هرتزفلد

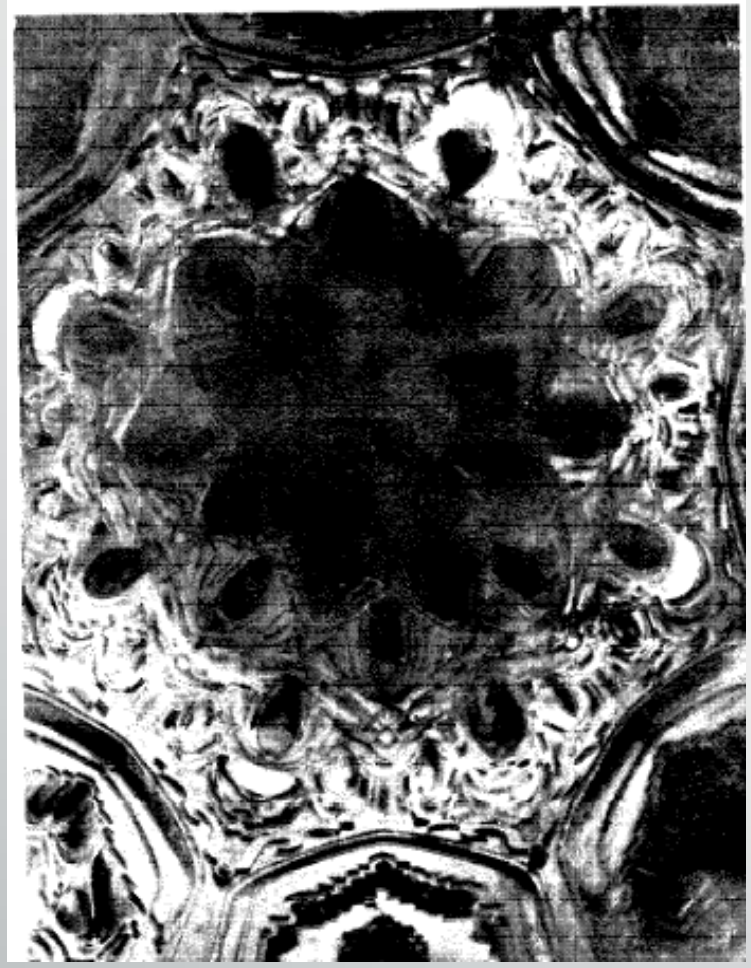

أيضاً في دمشق ويؤرخ في سنة ٥١٩ هـ (١١٥٤ م) ، ثم يأتي المثل الرابع من العراق (ش : ٢١٣) وهو الضريح المعروف بقبر زبيدة والذي سمي على اسم امرأة الخليفة هارون الرشيد مع أنها توفيت كما هو معروف في أواخر القرن الثاني الهجري بينما يؤرخ هذا المبنى في القرن ٧ هـ (١٣ م)[٨١] .

ومهما يكن من أمر ، فإن هذا النوع من القباب يتميز بأنه يتكون من عدة طبقات من المقرنصات من الحجم الكبير نسبياً ، تعلو الواحدة منها الأخرى ويضيق قطر كل طبقة كلما ارتفعت ، ويقل عدد مقرنصاتها ، حتى تشبه مخروطاً ذا زاوية حادة على هيئة قبيبة صغيرة باستثناء ضريح نور الدين الذي وضعت في قمتها قبة كبيرة نسبياً (ش : ٢١١) .

ومما لا شك فيه أن هذه المجموعة من التصميم غير العادي تمثل ابتكاراً فريداً في نوعه يضاف إلى مآثر المعماريين العرب المسلمين ، إذ لا يوجد لهذا التصميم شبيه آخر لا في الطراز العربي الإسلامي ولا في غيره من الطرز .

* * *

أما أشكال القباب التي كانت سائدة في منطقة العراق وفارس في العصر السلجوقي فإنها كانت شبيهة بتصميم القباب في العصر الفاطمي والأيوبي في مصر والشام ، وذلك من حيث القطاع المدبب للجزء الكروي ، ومن حيث

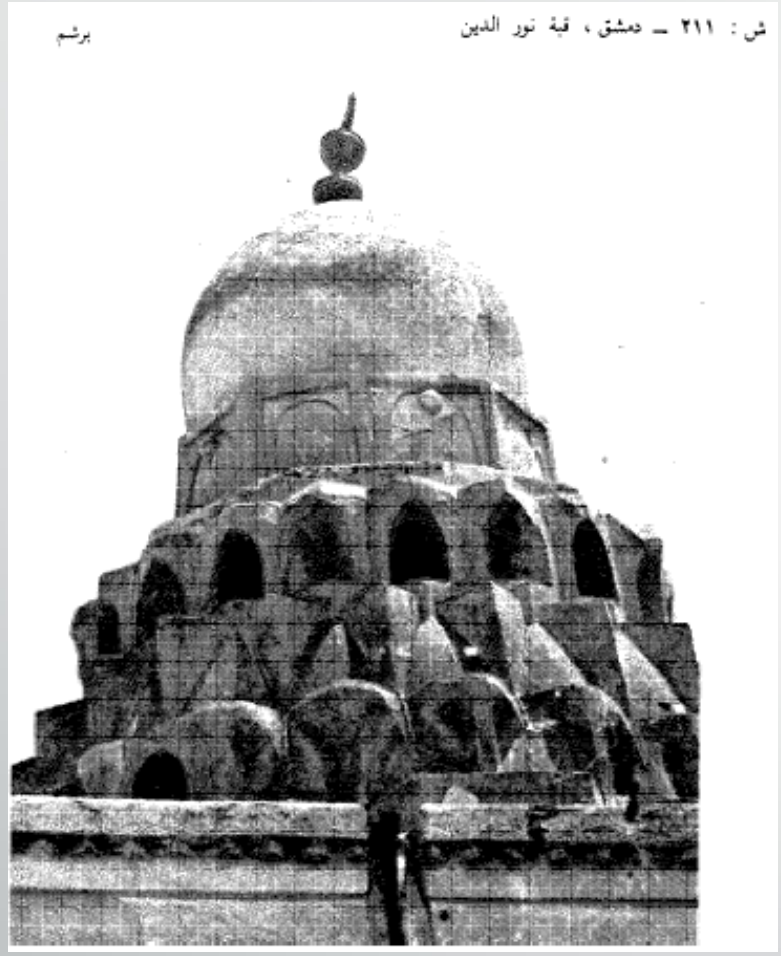

ش : ٢١١ ــ دمشق ، قبة نور الدين

برشم

البدن الأسطواني القصير الذي يعلوه الجزء الكروي ، ومن حيث وجود الرقاب التي تحتوي على النوافذ ، ومن حيث القواعد التي تحتوي على مناطق الانتقال وتقوم من فوقها الرقاب .

غير أن بعض التطور قد بدأ يتطرق إلى كسوات الأسطح الخارجية للقباب ورقابها وذلك بتغطيتها بالبلاطات الخزفية الملونة ، ثم زاد التطور في أشكال القباب نفسها حيث وضح بعض الانتفاخ في الجزء الكروي منها ، وبذلك بدأ يلوح شكل بصلي خفيف ، ثم زاد وضوحاً مع الوقت في العصر المغولي ثم التيموري ثم الصفوي . هذا بالإضافة إلى المبالغة المتزايدة في كسوات الجدران والقباب والمآذن بالبلاطات الخزفية .

ولكن مما يستلفت النظر ، أن المغالاة قد زادت في ارتفاعات الأجزاء الأسطوانية من القباب في العصر التيموري وفي ارتفاع القباب نفسها حتى كاد يصبح الجزء الكروي والبدن الأسطواني للقبة قطعة واحدة ، واتخذت المجموعة شكلا ممطوطاً أضاع بعضاً من نسبها الجميلة في الطرز السابقة ، ثم عادت في العصر الصفوي إلى النسب التقليدية المألوفة مع وجود الانتفاخ البصلي (ش : ٢١٥) .

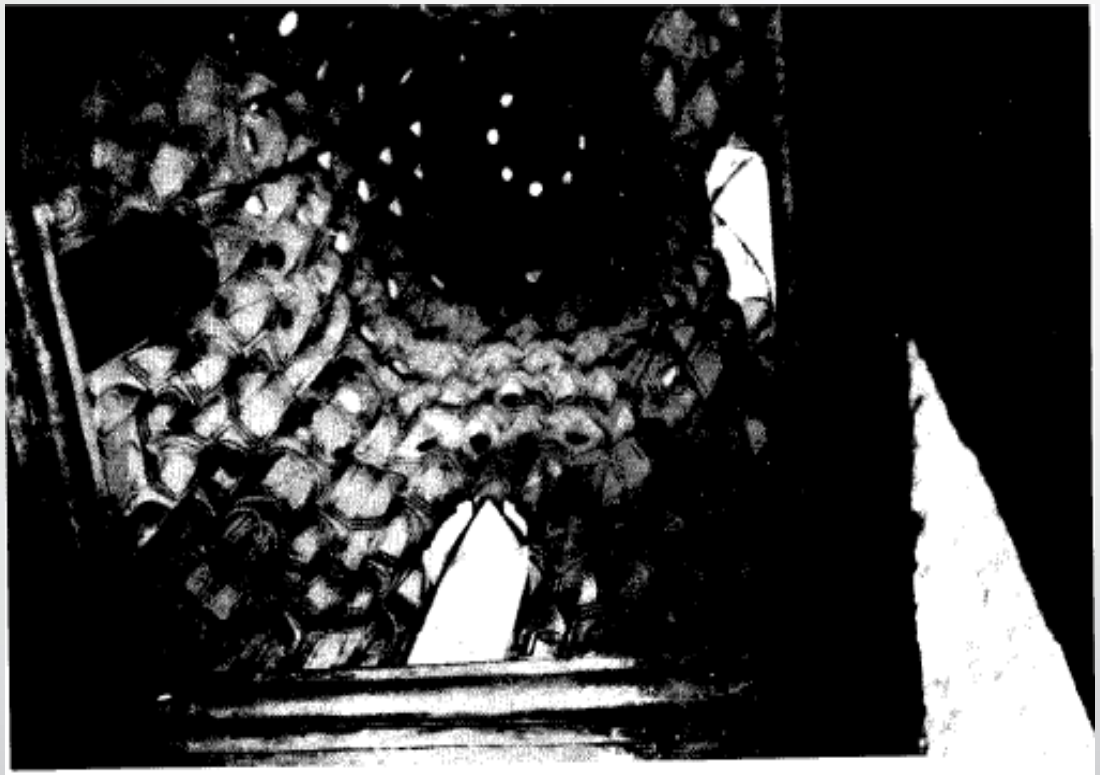

ش : ٢١٢ ــ دمشق ، مارستان نور الدين

برشم

هرتزفلد

ش : ٢١٣ ــ العراق ، ضريح زبيدة بالموصل

وزاد من وضوح الشكل البصلي في الجزء الكروي من القبة عمل ضلوع أو قنانات متلاصقة ذات قطاع محدب صغير وكأنها حبال تتدلى من قة القبة وتنحدر على المنحنى الكروي ثم تهبط عمودية على البدن الأسطواني وتنتهي عند نطاقه الأسفل بصفوف من المقرنصات الدقيقة الحجم والتي تبرز عن بدن القبة فتجعل مجموعة تلك الضلوع هيئة بصلية خفيفة . وكل ذلك يتجلى في مثل من أشهر أمثلة العمائر التيمورية في فارس وهو قبر تيمورلنك في سمرقند (ش : ٢١٦) والذي يؤرخ في سنة ٨٣٨ هـ (١٤٣٤ م)[٨٢] . بل إن لهذا الشكل عدة أمثلة في فارس منها قبة مدرسة شيراز وفي سمرقند[٨٣] ، إلى غير ذلك من الأمثلة .

وقد أشرنا من قبل إلى أن هذا الشكل من القباب البصلية يوجد له مثل شديد الشبه به في مصر في القرافة الجنوبية بالقاهرة وهو قبتان متماثلتان فوق ضريح يعرف بالقبة السلطانية (ش : ٢٠٨) ويؤرخ في القرن ٨ هـ (١٤ م) . وهو يعزز ما ذكرناه في سياق الحديث عن

ش : ٢١٤ ـ فارس ، قبة مخروطية لضريح

موسوعة الفن الفارسي

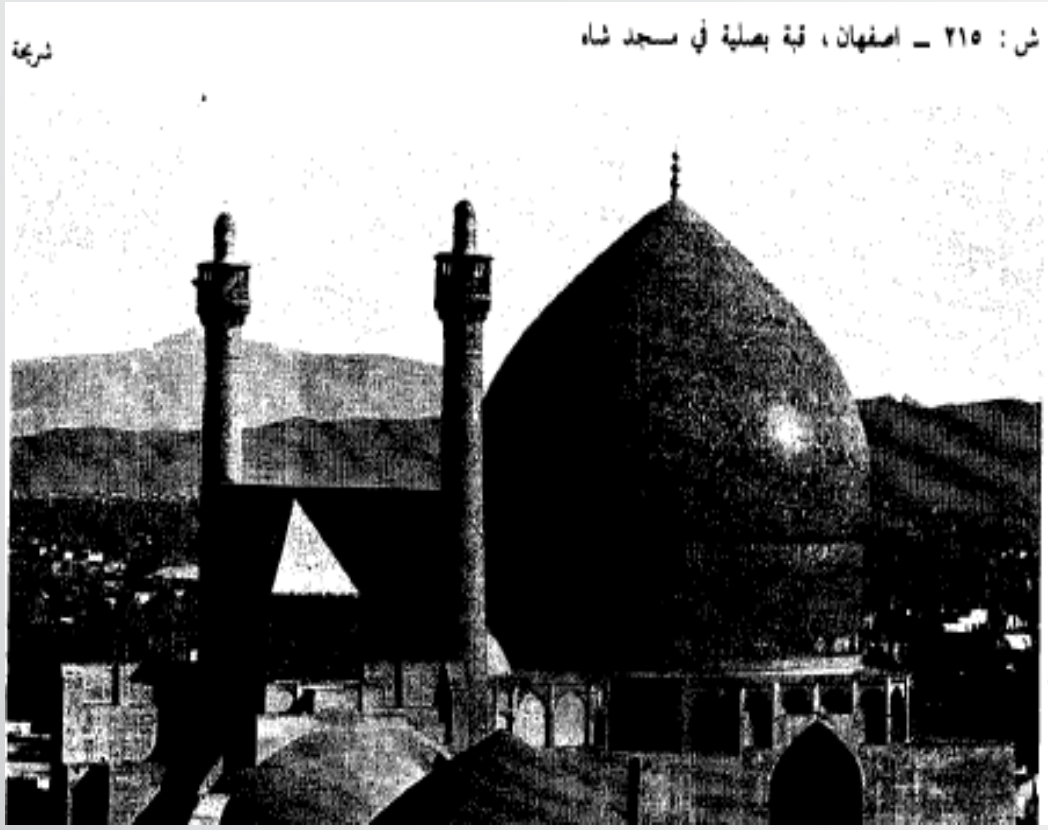

ش : ٢١٥ ـ اصفهان ، قبة بصلية في مسجد شاه

شريعة

القبيبات البصلية للمآذن عن وصول تأثيرات معمارية وفنية من شرق العالم الإسلامي إلى المنطقة الوسطى منه إثر غارات المغول من جهة ، وإلى نمو العلاقات والصلات بين الأسرات المغولية التي استقرت في العراق

وفارس وبين الأسرات الحاكمة في الشام ومصر .

وقد ساد الشكل المدبب العادي في العصر الصفوي الذي يتميز بانتفاخ خفيف بصلي وبالرقبة المعتدلة الارتفاع ، ومن أمثلة ذلك قبة جامع الشاه بأصفهان[٨٤] (ش : ٢١٥) ومدرسة الشيخ لطف الله بأصفهان[٨٥] ، وكلها في أصفهان ، وهناك كثير غيرها في جهات متعددة من فارس والعراق .

* * *

وتبعت القباب التي شيدت في الهند تقاليد وأشكال القباب الفارسية الصفوية إلى درجة ما ، ولكن مع طابع مميز . فعلى الرغم من الشكل البصلي المبالغ فيه (ش : ١٤٤) فإن القمة المدببة قد وصلت إلى درجة تشبه مخروطاً حاد الزاوية ، وغالباً ما تكون هذه القمة على هيئة زهرة مقلوبة ببتلاتها ، وهو شكل ساد على السواء في القباب والقبيبات التي تغطي الأبراج التي أغرم المعماريون الهنود في العصر المغولي الهندي ببنائها في أركان المباني الدينية والمدنية

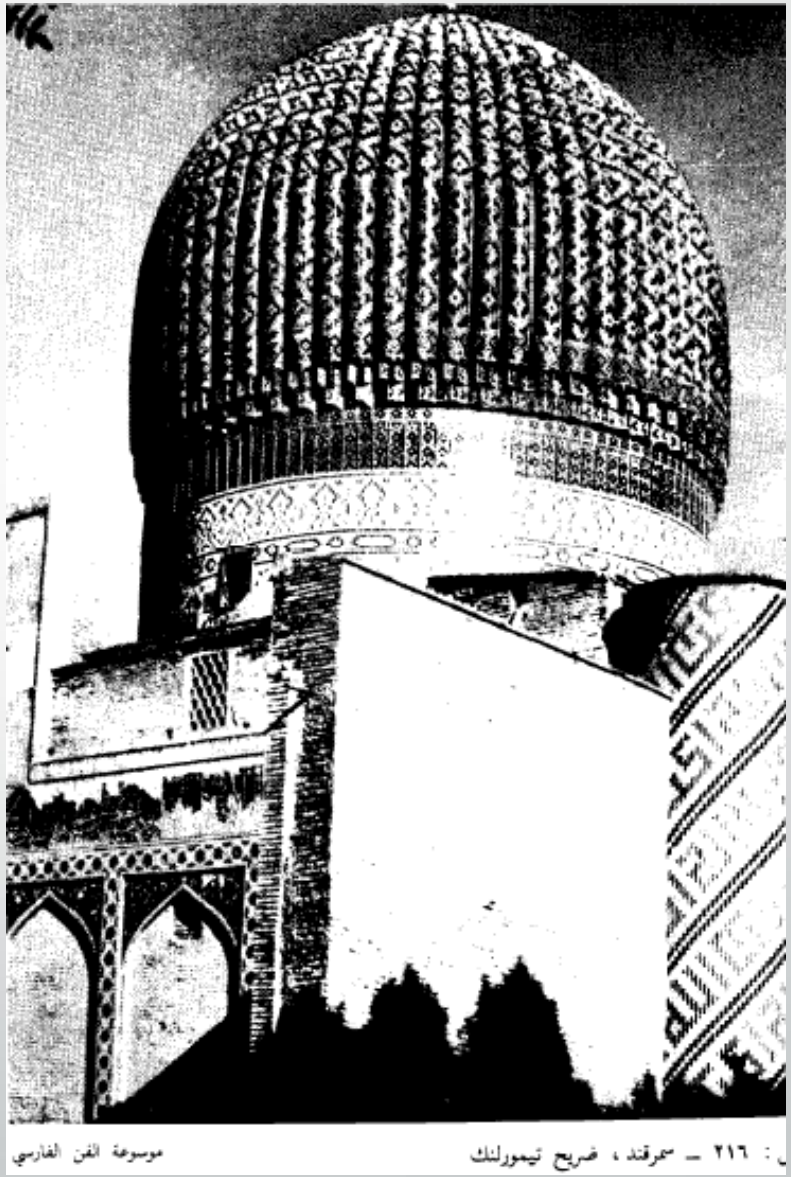

ش : ٢١٦ ــ سمرقند ، ضريح تيمورلنك

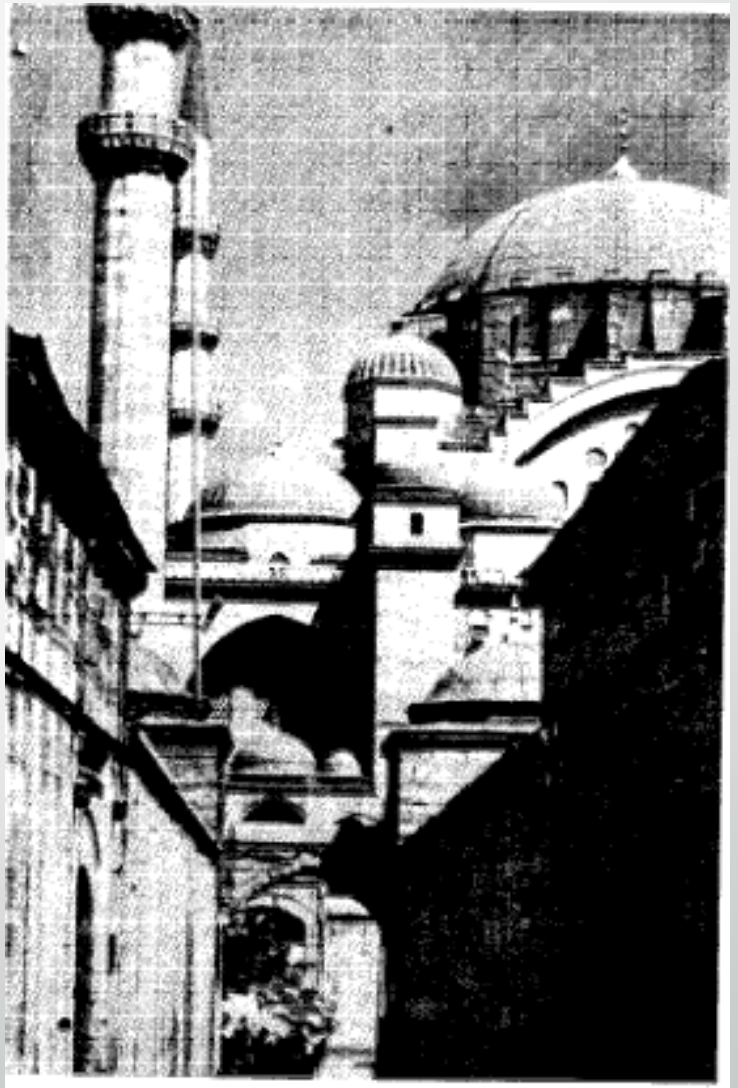

ش : ٢١٧ ــ استنبول ، مجموعة السليمانية

شريحة

ش : ٢١٨ ــ تركيا ، جامع بايزيد باماسيا

شريحة

(ش : ١٤٣) ، ولكن من الملاحظ أن تلك القبيبات يقل فيها الانتفاخ البصلي ويزيد ميلها إلى الشكل نصف الكروي . ويشاهد ذلك مثلاً في المسجد الجامع بدهلي[٨٦] الذي بناه شاه جهان صاحب تاج محل ، وفي مسجد اللؤلؤة في أجرا وبناه أيضاً شاه جهان في حوالي سنة ١٠٦٦ هـ (١٦٥٥ م)[٨٧] . كما أن هناك عمائر شيدت على الطراز التيموري مثل المسجد الجامع في جانبور ، وشيد فيما بين ٨٤٢ و٨٨٣هـ (١٤٣٨ و١٤٧٨ م)[٨٨] وكان غنياً بالبلاطات الخزفية الملونة ، ومثله أيضاً حدث لضريح شير شاه في ساسارام[٨٩] ، إلى غير ذلك من الأمثلة .

* * *

أما العصر العثماني فقد تميز بأن غرام المعماريين بالقباب فيه قد فاق كل غرام ، فإنهم ما كانوا يتركون فرصة لوضع قبة أو قبيبة أو أنصافها إلا انتهزوها ، بل لعلنا لا نبدو مبالغين إذا قلنا إنهم كانوا يخلقون الوحدات المعمارية التي تصلح لأن تغطى بشكل من أشكال تلك العناصر ، بل إننا في الحقيقة لو أحصينا القباب ومشتقاتها التي استخدمت في العصر العثماني لتجاوز عددها مجموع القباب التي حدثت في العصر الإسلامي كله . والمكان الوحيد الذي نجا من وضع قبة أو شكل كروي فوق رأسه هو النهاية العليا أو قمة المآذن ، والتي يبدو أن تأثير النهايات الرمحية (spires) التي كانت سائدة في أوروبا لأطراف أبراج الكنائس والعمائر في العصور الوسطى الأوروبية والنهضة قد تغلبت على ذلك الغرام بالقباب فيما يخص المآذن ، ولا ندري إن كان تأثير تلك النهايات الرمحية قد أوحى وحده بعمل قمم المآذن على شكل قلم الرصاص أو اشترك معه شكل لباس رأس الدراويش الذي يشبه ويسمى « بالطرطور » ، والذي كان يرتديه أفراد تلك الفئة الذين وصلوا في العصر العثماني إلى مركز من مراكز القوى التي كان لها خطرها في الدولة .

ولكن الذي لا شك فيه ولا يمكن إنكاره ، أن هذا التغالي في استعمال القباب قد أضفى على الطراز التركي شخصية وطابعاً مرموقين بين طرز العمارة عامة والطرز الإسلامية خاصة . كما أنه ليس هناك من شك في أن عمائر القسطنطينية البيزنطية وبخاصة كنيسة أياصوفيا وما تتمتع به من مميزات الفخامة والاتساع كان لها أكبر الأثر في تضخم ميل العثمانيين إلى المغالاة في أحجام عمائرهم وجميع المظاهر المتعلقة بها سواء الخارجية أو الداخلية ، ومن ثم ، فقد أعطوا لمعماريهم الحرية والمال الكافيين لتصميم وتنفيذ ما يشبع رغبات الزبائن وعلى رأسهم السلاطين وأصحاب السطوة والقوة ، وما يشبع الميول والأفكار الفنية للمعماريين أنفسهم .

وتتميز القباب التركية والعثمانية بالشكل الذي يقل عن نصف الكرة ، وبخاصة القباب ذات الأحجام الكبيرة والمتوسطة ، أما ذات الأحجام الصغيرة فكان الكثير منها يغلب عليه القطاع المدبب ، بل كان بعضها يقرب من الشكل المخروطي .

وكان الأسلوب الغالب في العصر التركي في الأناضول قبل فتح استنبول وضع فانوس أو

«شخشيخة» في قة القبة ، ومن أمثلتها ما يوجد في جامع بايزيد باشا في مدينة أماسيا (ش : ٢١٨) ويؤرخ في سنة ٨٢٢هـ (١٤١٩م)[٩٠] ، وفي جامع مراد الثاني في مدينة أدرنة ويؤرخ في ٨٢٤هـ (١٤٢١م) . ثم تضاءل الإقبال على ذلك الأسلوب بعد فتح القسطنطينية ولكن يوجد منه مثل في جامع السليمانية في تلك المدينة (ش : ٢١٧) ويؤرخ في سنة ٩٦٥هـ (١٥٥٧م)[٩١] .

وشيدت أغلب القباب ومشتقاتها من أنصاف القباب والقبيبات بالحجر وبخاصة في مناطق الدولة العثمانية في جنوب أوروبا وآسيا الصغرى والشام ، أي في المناطق التي كانت تتوفر فيها مادة الحجر وتقل فيها مادة الطمى .

ومهما يكن من أمر ، فقد كانت القباب الكبيرة الحجم وأنصافها تغطى بقرميد من الفخار المحروق ، ثم انتشرت تغطياتها بألواح الرصاص مما تطلب وضع عروق خشبية رفيعة طولية وعرضية على مسافات مناسبة وذلك لتثبيت ألواح الرصاص . وأغلب ظننا أن القبة التي فوق الصخرة ببيت المقدس قد كسيت بتلك الألواح من الرصاص في العصر العثماني عندما جدد البناء في ذلك العصر وشيدت فيه القبة من قشرتين من الخشب . وهو أيضاً ما حدث بالنسبة لقبة ضريح الإمام الشافعي بالقاهرة (ش : ١٢٠) ثم لقبة بيت المال في المسجد الجامع بدمشق (ش : ٢٢) .

* * *

ويبقى عنصر تقليدي يتصل بالقبة في المساجد وهو ما نسميه «الخوذة» التي توضع عادة في نقطة القمة من القبة أو قبيبات المآذن . وكانت عادة تعمل من النحاس أو البرونز وتتكون غالباً من عدة كرات تنقص الواحدة منها عن التي تحتها وتنتهي العليا منها بهلال يواجه الناحية التي توجد فيها الكعبة بالنسبة للمكان الذي شيد فيه المسجد . ومن الملاحظ أن هذا التقليد لم يظهر في العصور المبكرة بل بدأ في الانتشار في العصور الوسطى الإسلامية .

العقود

ونضيفها إلى ما سبق من عناصر معمارية لعبت أدواراً هامة في تاريخ العمارة العربية الإسلامية منذ عصورها المبكرة حتى عهد ليس بالبعيد وهي العناصر التي ما زالت لها قيمتها في محاولات التطوير والتحوير والاستيحاء منها بأشكال تتمشى مع محاولات تطوير الطراز نفسه في العصور الحاضرة والمستقبلة ، وهي أيضاً العناصر التي تعد أعضاء جوهرية وإنشائية وليست كالعناصر التي تطورت من أعضاء إنشائية إلى مجرد زخارف مثل المقرنصات والكوابيل وغيرها .

ومن نافلة القول ، أن نتحدث عن نوعين

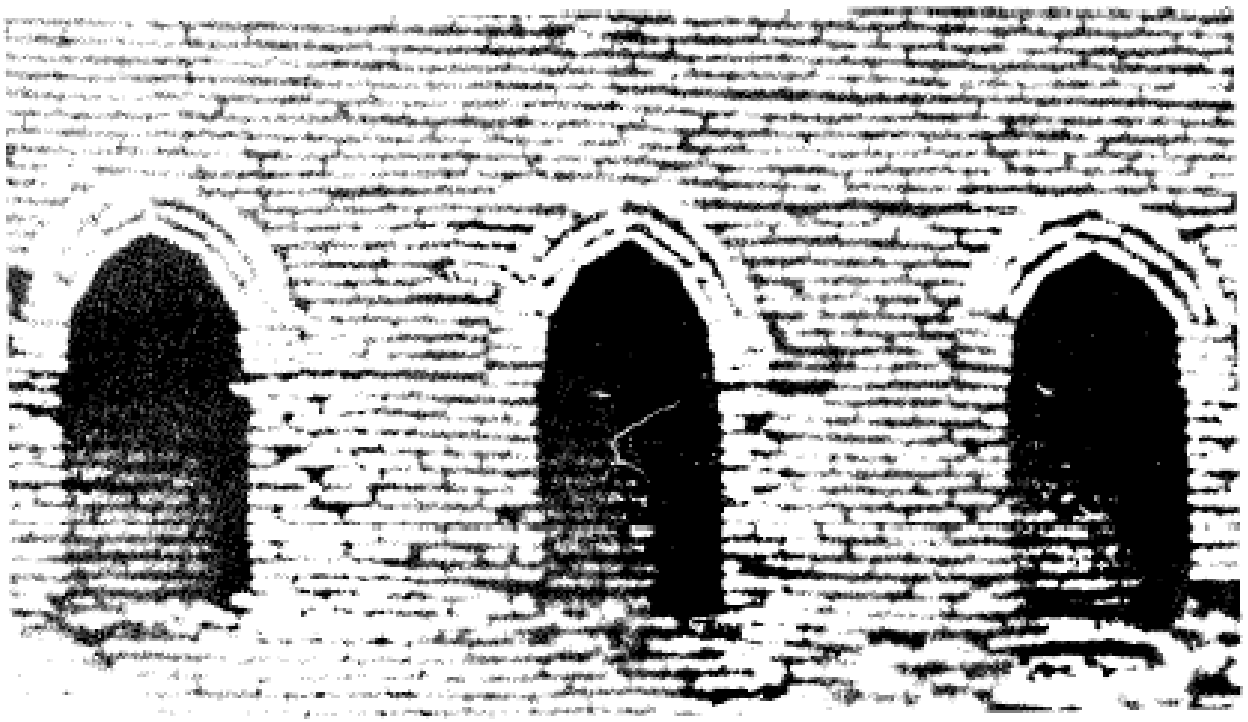

ش : ٢١٩ ــ طاق كسرى ، العقد المدبب

موسوعة الفن الفارسي

معروفين جيداً هما العقد نصف الدائري والعقد القوسي ، ونركز على النماذج التي اختص بها الطراز العربي الإسلامي ، والتي ابتكرها الفنانون في ذلك الطراز .

ويأتي على رأسها ، بطبيعة الحال ، العقد المدبب الذي جاء ذكره في صفحات سابقة وأنه قد نسب أقدم مثل له معروف إلى العصر البيزنطي في الشام ، وهي نسبة مفتعلة ما بعدها افتعال ، وأثبتنا ذلك بما اكتشفناه في رحلة لنا في العراق حيث شاهدناه على هيئة مدببة صريحة في أعلى الواجهة الخلفية لإيوان كسرى في موضع المدائن المعروف الآن بسلمان باك (ش : ٢١٩) .

ومهما يكن من أمر ، فإن العقد المدبب

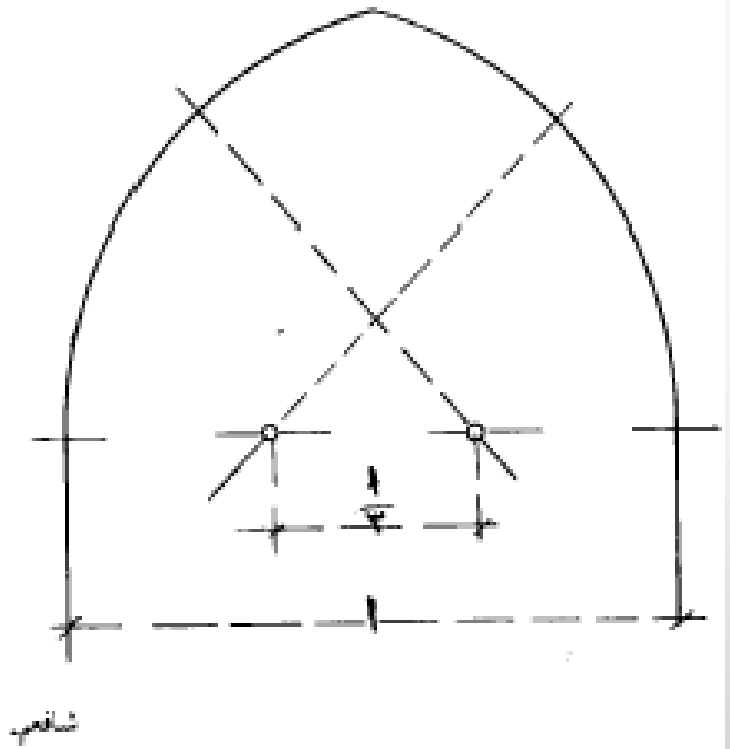

ش : ٢٢٠ ــ العقد المدبب العادي ذو المركزين

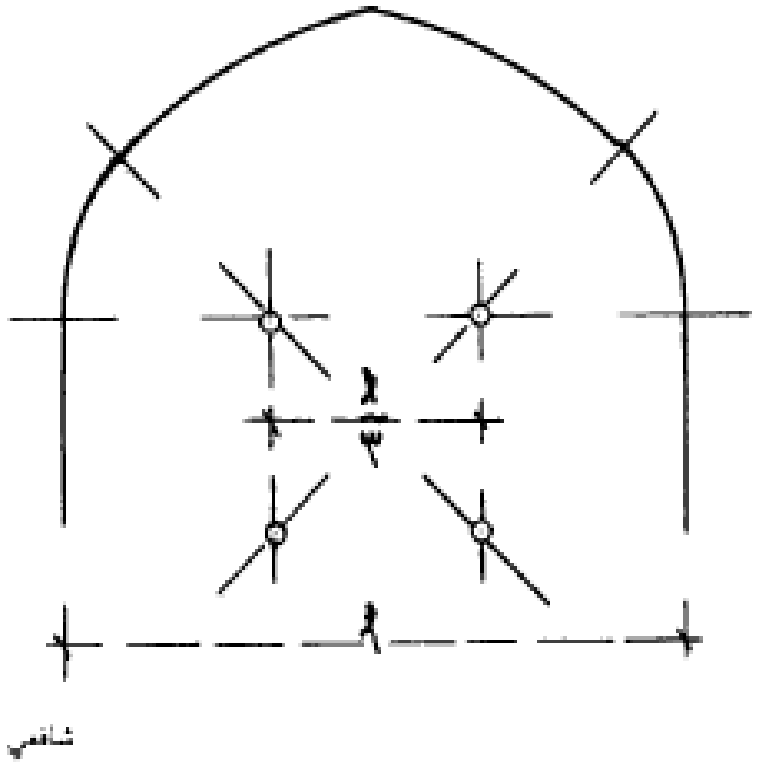

ش : ٢٢١ ــ العقد المدبب ذو المراكز الأربعة

العربي الإسلامي له ثلاثة نماذج رئيسية . أولها وأقدمها هو المكون من قوسين مرسومين من مركزين وضعا على جانبي المحور الأوسط للعقد (ش : ٢٢٠) ، ويلتقي القوسان عند قمة العقد المدببة . ومن المعروف أنه كلما بعد المركزان عن المحور كلما زادت حدة زاوية القمة المدببة .

وإذا كان هذا النموذج من العقد المدبب البسيط قد وجد من قبل الإسلام فإن الفنانين العرب المسلمين قد ابتكروا نموذجاً ثانياً لم يسبقه مثل من قبل ، ويتكون من أربعة أقواس ، اثنين صغيرين واثنين كبيرين مماسين لها ويلتقيان عند القمة (ش : ٢٢١) ، وترسم الأقواس من أربعة مراكز ، وسميناه بالعقد العراقي حيث ترجع أمثلته إلى وقت بناء مدينة الرقة حيث يشاهد في واجهة باب بغداد (ش : ٣٣)[٩٢] . وشيدت عليه جميع عقود جامع أبي دلف في سامراء[٩٣] . ويلاحظ أن قمته تنخفض ، بطبيعة الحال ، عن قمة العقد المدبب العادي السالف الذكر .

أما النموذج الثالث فقد سميناه بالعقد الفاطمي بعد أن كان يعرف بالعقد الفارسي ، وذلك لأننا عثرنا على أقدم أمثلته في أقدم أجزاء باقية من الجامع الأزهر (ش : ٧٧) وهو يسبق بذلك أقدم أمثلته في فارس بنحو قرن من الزمن ويسمى بالإنجليزية (keel arch) لأنه يشبه قاع المركب المدبب .

ويتكون هذا العقد الفاطمي من قوسين ومن مستقيمين مماسين لهما يلتقيان عند القمة (ش : ٢٢٢) . غير أن من الملاحظات التي تتعلق بهذه النماذج الثلاثة أن انتشارها كان

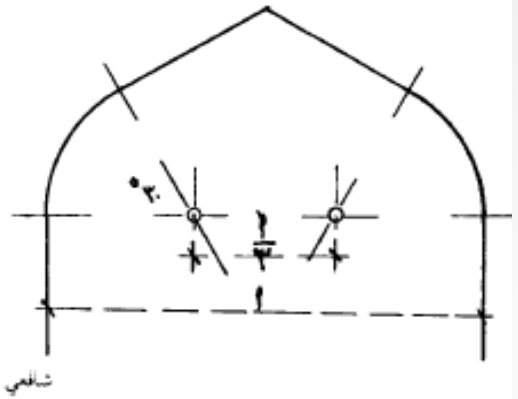

ش : ٢٢٢ ــ العقد المدبب الفاطمي

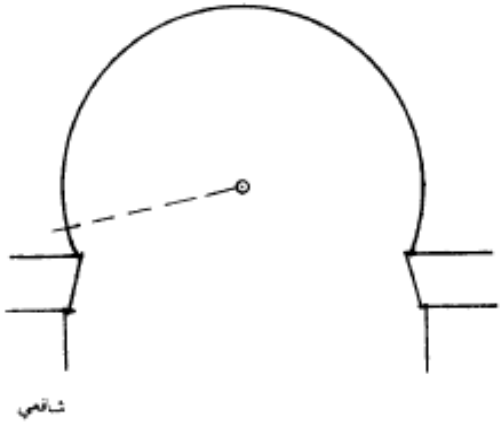

ش : ٢٢٣ ــ العقد حدوة الفرس المستدير

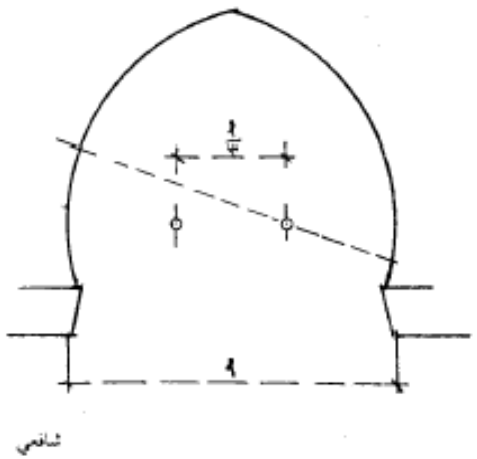

ش : ٢٢٤ ــ العقد حدوة الفرس المدبب

قاصراً على المنطقتين الوسطى والشرقية من العالم الإسلامي ، وأنها لم تحظ بعناية باستعمالها في غربه ، فمن النادر أن توجد لها أمثلة هناك .

ومن ناحية أخرى ، فإن النموذجين الثاني والثالث كان يصعب في بعض الأحيان أن نتبين الفرق بينهما إذا لم تراع الدقة الكافية في بنائهما ، فقد لا يتضح تقوس المنحنيين العلويين في النموذج العراقي فيبدوان أقرب إلى مستقيمين ، وبالتالي يقرب العقد من النموذج الفاطمي والعكس بالعكس .

ومن العقود التي كانت نادرة الاستعمال قبل العصر الإسلامي العربي ثم اقتبسها المعماريون العرب المسلمون وطوروها وهذبوها ونشروها وأصبحت من أعلام طرازهم نوع على شكل حدوة الفرس (ش : ٢٢٣) ، ويتميز بأن تقوسه لا يقف عند الخط الأفقي الذي يقع عليه مركز العقد إذا كان نصف دائري أو يقع عليه مركزا العقد إذا كان مدبباً (ش : ٢٢٤) .

وعلى العكس من العقد المدبب بنماذجه الثلاثة ، والتي يرجع أصلها إلى الشرق الإسلامي حيث استقر ونما وازدهر فيه وفي وسط العالم الإسلامي ، فإنه لم يلق ترحيباً في الغرب الإسلامي ، فإن العقد حدوة الفرس الذي نبت أيضاً مثل العقد المدبب في العراق والشرق الأوسط قد هاجر من الشرق منذ

كريسول

ش : ٢٢٥ ـ الفصوص في قصر الأخيضر

كريسول

ش : ٢٢٦ ـ الفصوص في جامع سامرا

العصر الأموي مع الجيوش الفاتحة نحو الغرب حيث استقر وازدهر هناك ، بل أصبحت له السيادة المطلقة هناك وصار من أعلام العناصر العربية الإسلامية في الغرب ، بل إنه حظى بعناية مرموقة بتنوع وتعدد أشكاله وبإخراج تكوينات زخرفية منه غاية في الطلاوة ، مثل عمله على هيئة مجموعات منه متقاطعة ومتشابكة ، ومنها أمثلة في جامع قرطبة (ش : ٢٢٧) ، ومنها ما يوجد في الجامع الذي حول إلى كنيسة تعرف بكنيسة كريستو دي لا لوث وسبقت الإشارة إليها (ش : ٧٠) ، وغير ذلك كثير .

وقد أنتج هذا التشابك والتقاطع حشوات هندسية ومنها ما يبدو لأول وهلة أنه نوع جديد من العقود ذو قمة مدببة حادة تشبه العقد الرمحي الشكل (ش : ٢٢٧) ، وهو الشكل الذي انتشر على نطاق واسع في العمارة القوطية في أوروبا فيما بعد .

ومن الجدير بالذكر ، أن من الأمثلة النادرة التي يجتمع فيها كل من العقد المدبب العادي والعقد حدوة الفرس ما يوجد في عدد من عقود بائكات جامع ابن طولون المطلة على الصحن وبداخل الظلات ، وكذلك في داخل ظلة القبلة في جامع القيروان[٩٤] .

كما لا يفوتنا أن نشير إلى أن ظاهرة التشابك والتقاطع التي أشرنا إليها كانت من الخصائص التي تميز بها الغرب العربي الإسلامي دون شرقه ووسطه .

تلك هي نماذج العقود الرئيسية المجردة والبسيطة التي بقي الكثير منها على حالته الأصلية ، بينما لم يبق كثير آخر كما هو إلا فترة قصيرة ثم أخذت تتطرق إليه عناصر ووحدات زخرفية تضيف إلى أشكاله طابعاً وطلاوة انفردت بهما العقود في العمارة العربية الإسلامية من بين عقود الطرز المعمارية الأخرى .

وتتمثل تلك العناصر الدقيقة والتطورات في أقواس مجوفة صغيرة اصطلحنا على تسميتها بالفصوص (lobes) أو (cusps) ، وضعت متلاصقة في حافة العقد سواء كان مدبباً أو نصف مستدير أو من نوع حدوة الفرس ، ويشاهد أقدم أمثلتها في باب بغداد بالرقة (ش : ٣٣) ثم الفصوص في قصر الأخيضر في بادية العراق وله فيه عدة أمثلة (ش : ٢٢٥)[٩٥] ، ويليه في التاريخ مثل في عقد إحدى كوى جدار القبلة في جامع سامرا الكبير (ش : ٢٢٦)[٩٦] .

ومرة أخرى ، نرى هذه الظاهرة قد انتقلت إلى الغرب الإسلامي وصارت من خصائصه المرموقة بل المحببة إلى فنانيه ، فأشركوها مع العقود حدوة الفرس المتقاطعة والمتشابكة وأنتجوا منها كلها روائع معمارية يشاهد الكثير منها في جامع قرطبة مثلاً (ش : ٦٢ و٦٣ و٦٤)[٩٧] وفي قصر الجعفرية (ش : ٦٩)[٩٨] إلى غير ذلك من الأمثلة .

كما انتشرت هذه الظاهرة منفردة ومشتركة مع العقود المتقاطعة والمتشابكة على واجهات المآذن في الغرب الإسلامي (ش : ١٦٥ و١٦٦ و١٦٧) .

كذلك انتشرت ظاهرة الفصوص في حافات العقود وفي إطارات حولها على هيئتها

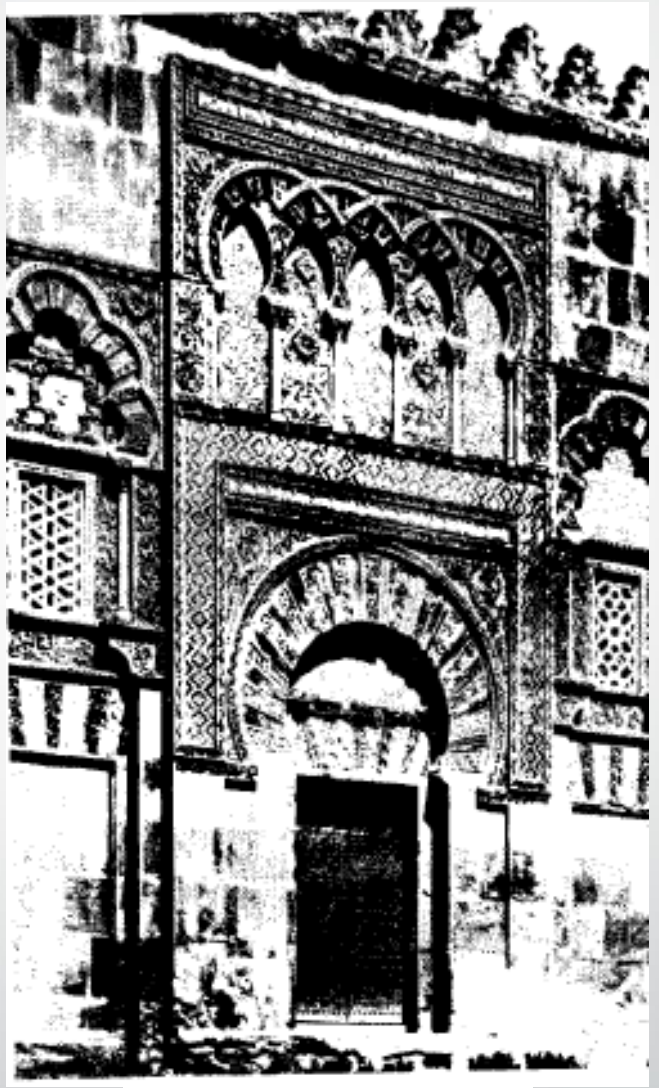

ش : ٢٢٧ ــ قرطبة ،

العقود المتقاطعة والمقصصة بالجامع

جومث ــ موريتو

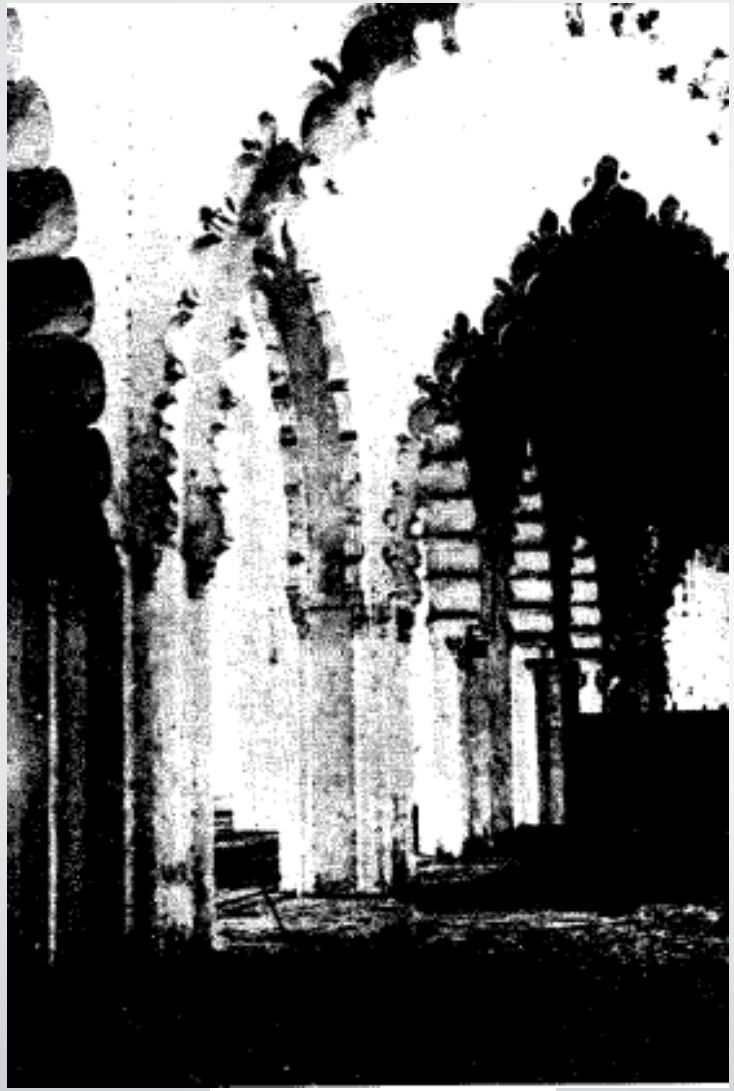

ش : ٢٢٨ ــ مراكش ،

جامع الكتبية ، عقود مقصصة

مارسيه

البسيطة أو المركبة أو المتشابكة وذلك في أغلب عمائر الموحدين والمرابطين في شمال إفريقية ، وهي إما على هيئاتها التقليدية ، أي أقواس مجوفة ، كما في جامع تلمسان (ش : ٢٢٩)[٩٩] أو على هيئة مقرنصات ودلايات (ش : ٢٢٨)[١٠٠] أو على هيئة التواءات . هذا ومن الجدير بالذكر ، أن تلك الظواهر قد وصلت إلى أوج نضجها وهي على هيئة دلايات ومقرنصات تنتثر في أرجاء القاعات والأفنية والحجرات والحمامات في قصور الحمراء بغرناطة (ش : ١٢٧)[١٠١] .

ثم تعترينا الدهشة مرة أخرى عندما لا نرى لكل هذه التطورات من تلك العناصر المعمارية والزخرفية أية انعكاسات لها في مصر والشام ولا في العراق وفارس ، اللهم في ندرة من الأمثلة تبدو بين الحين والآخر ولكنها سرعان ما تخبو دون أن تترك أثراً أو تتتابع منها حلقات ذات شأن .

بل ومن العجب أيضاً أن نرى ظاهرة الفصوص هذه قد نالت حظوة كبيرة في الطراز الهندي المغولي ، حيث تكثر أمثلتها فيه (ش : ١٤٣ و١٤٤) ، مما يدعونا للتساؤل عن العلاقة بينها في تلك المنطقة التي تقع في اقصى بلاد المسلمين وبين ما في اقاصي الغرب الإسلامي ، وذلك مع وجود الفاصل الكبير فيما بينهما ، وهو منطقة شرق العالم الإسلامي ، أي فارس والعراق ، ومنطقة وسط ذلك العالم وهي الشام ومصر .

مارسيه

ش : ٢٢٩ ــ جامع تلمسان ، عقود مفصصة

شـكرا لحسـن المتابعة والاصغاء